الهوية السياسية والوطنية في العمل الروائي النسوي
د. رضوى عاشور و د. خولة حمدي أُنموذجاً

أ. د إيمان كمال مصطفى

emankamal67@gmail.Com

الباحثة: هبة أحمد سالم

hiba4.q95@gmail.com

الجامعة العراقية – كلية الآداب

Political and national identity in the feminist novel
Dr. Radwa Ashour and Dr. Khawla Hamdi is an example

Dr. Eman Kamal Mustafa

Researcher: Heba Ahmed Salem

AL-Iraqia University - College of Arts

المستخلص

تحاول هذه الدراسة التي تحمل عنوان (الهوية السياسية والوطنية في العمل الروائي النسوي– د. رضوى عاشور و د. خولة حمدي أُنموذجاً) الكشف عن عمل روائي نسوي معاصر، فالكاتبة تَستلهم من وحي واقعِها، فجاء أدبها مُحمَّلاً بالهموم السياسيّة والوطنية. فتعدُّ كلٌ منهما منارة فكرية دافعتْ عن هوية الأمة من خلال أعمالها السردية، وظهرتْ في رواياتها مُتمردة بقلم صادق مهموم بالإنسانية، وصورة الوطن المفقود وقضايا التاريخ وكذلك قضايا المرأة، وتُوصف بأنها أيقونة الحرية والمقاومة بالكتابة. فالكتابة وسيلة، اتخذتها كلتا الروائيتينِ لإيصال رسائلها، ولطرح قضاياها التي تُحركها، وتستوحي ذلك من عالمها وإطار تجربتها الشخصيّة.

Abstract

This study, titled (Political and National Identity in the Feminist Novelist Work - Dr. Radwa Ashour and Dr. Khawla Hamdi as an Example), attempts to reveal the work of a contemporary feminist novelist. Each of them is considered an intellectual beacon that defended the nation's identity through its narrative works, and appeared in its novels rebellious with honest pen, concerned with humanity, the image of the lost homeland and issues of history as well as women's issues, and it is described as an icon of freedom and resistance in writing. Writing is a means used by both novelists to convey their messages, and to raise the issues that move them, and they draw inspiration from their world and the framework of their personal experience.

المقدمة

الحمدُ لله الذي بتوفيقه أستعين، ولعظمته أستكين، والصلاة والسَّلامُ على رسوله الأمين، المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

تَتَبوأ الرواية مكانة بارزة بين الأجناس الأدبية الحديثة من حيث الكثرة و الازدهار والانتشار، فالسرد أداة من أدوات التعبير الإنساني، وتعدُّ الرواية من أهم هذه الفنون السردية وأكثرها استقراراً.

فيهدف هذا البحث إلى الكشف عن في عمل روائي نسوي معاصر، بدراسة هذا الأدب والكشف عن هوية هذه الروائية (الذاتيّة والأدبية) التي ظهرتْ من خلال أعمالها، ومدى تأثير هذه الهوية في النِتاج الروائي، والأسلوبية التي اعتمدتها.

فالكتابة وسيلة، اتخذتها كلتا الروائيتينِ لإيصال رسائلها، ولطرح قضاياها التي تُحركها.

وهكذا فإن البحث عن الهوية المُرتبطة بـ(الذات) في السرد النسوي، هي بحث عن (الشخصية) التي تَتَمثل فيها هوية مُنتج النص/الكاتبة، وليست الهوية الجماعية النسوية، وإن كانت بينهما نقاط التقاء كثيرة، فهوية الروائية رضوى عاشور هي غير هوية الروائية خولة حمدي.

الهوية السياسية والوطنية في العمل الروائي النسوي

د. رضوى عاشور و د. خولة حمدي أُنموذجاً

السياسة لغةً: ذكر ابن منظور في لسان العرب أنَ السياسة مصدر للفعل ساس يسوسُ، وسَاسَ الأمرَ سِياسةٍ: قامَ به، وسَوَّسه القومُ: جَعَلوه يَسُوسَهم أي يترأسهم، والسياسةُ: القيامُ على الشيء بما يُصْلِحه، والسياسةُ: فعل السائس[1]، والسياسة: تولّي أمر الناس وإرشادهم إلى الطريق الصالح[2].

السياسة اصطلاحاً: وردتْ في معاجم المصطلحات السياسية أنَّها القوة والهَيمنة التي تُمثلها أنواع الحكومات، وتَتَسم بمفهومين: الأول: مفهوم تقليدي ضيق، يُركز على أنَّ السياسة هي ظاهرة دراسة الأنماط السياسية للمؤسسات العامة، والثاني: مفهوم شامل ومعاصر، ينظر للسياسة على أنها علم دراسة الوظائف والأنشطة المختلفة، وتركز على المنافسة والصراع من أجل السيطرة والنفوذ، والسياسة عملية عامة تتفاعل فيها قوى وجماعات مختلفة ومتصارعة، وهي ظاهرة توزيع القيم على الأفراد والمواطنين داخل كل تنظيم سياسي، وعُرفتْ أيضاً أنَّها: الأهداف ووسائل العمل التي تتبعها الحكومات والتنظيمات والأفراد[3].

❋ الهوية و السلطة السياسية المُعاصرة

توصف الهوية السياسية للروائية (رضوى عاشور) بالهوية المُتغيّرة، فهويتها السياسية ضبابية غير واضحة، فتَتَجلى عنها هُويةٌ سياسيةٌ رافضةٌ للسلطة السياسية المصرية الُمُعاصرة لها، والمُتمثلة بــ(أنور السادات)، ومنه على سبيل المثال ما ظهر على هيئة سخرية مُبطنة، بقولها على لسان الطنطورية (رُقية):

" – ماذا جرى لك يا خالتي، نابلس تحت الاحتلال لا يستطيع صادق زيارتها.

– ألا يقول السادات إنه ذاهب ليطلب منهم إنهاء الاحتلال؟

– وصدَّقتِ كلامه؟

– لم أصدِّق"(٤).

فعبَّرت الروائية بالاستفهام الإنكاري عن الرؤية السياسية المُستهجنة التي أرادتْ إيصالها.

وتُظهِر رواية (فرج) الهوية السياسية المُتجذرة في نفس الروائية برفضها التام للآخر (النظام السياسي)، ورؤيتها بأنه المُصادر لحريات الرأي بإذلال العبقريات وإهانة الشخصيات المُثقفة في البلد وتَعذيب المُعتقلين السياسيين(٥)، الذين يُشكِّلون (الآخر المرفوض) ما دامَ قد أبدى رأياً يتعارض مع غاياتهم، فتتحدث طويلاً عن تهميشهم واستهدافهم بسبب اختلاف وجهات النظر وتبنّي كل طرف لفلسفة مُختلفة، ومنه على سبيل المثال قولها: **"كان على أمي في ذلك اليوم أن تجلس بجواري على السرير وتحكي كلاماً طويلاً عن رجل كبير متعلم، يفهم أشياء كثيرة، ويقول لا بد أن تسير الأمور بهذه الطريقة لا بتلك الطريقة، وهذا صحيح وذاك خطأ، وضباط لهم رأي آخر، هم مثل مدير المدرسة لازم النظام يمشي بطريقتهم، اختلفوا معه فوضعوه في السجن ...**

ولم أكن وحدي في ذلك؛ لأنني أذكر أنَّ منى أنيس وكان والدها الدكتور عبد العظيم أنيس زميل أبي، كلاهما أستاذ جامعي، وكلاهما معتقل في نفس السجن، أسرّت لي أن ابناً من أبناء عبد الناصر زميلها في الفصل، قلت لها: أريد أن أتعرّف عليه

لأسأله لماذا يضع والده آباءنا في السجن، وإن لم يكن يعرف نقول لابنه فيعرِّفه"[٦]. فتُعاني هذه الشخصيات من الاضطهاد نتيجة لمجاهراتها بأفكارها الفلسفية والدينية والسياسية.

ويُمكن ضمّ مُعظم أعمال (رضوى عاشور) تحت مصطلح أدب السجون والقمع السياسي، وسجناء الرأي وتأثيره على نفسية الشخصيات الروائية وتكوينها الشخصي، ففي رواية (فرج) تستحضرُ الروائية تاريخ الاعتقالات السياسية بالوطن العربي، والتعذيب بالسجون، بل تتطرق لبعض سجناء الرأي في العالم، حتّى أنها تقدمُ مثالاً لسيّدةٍ مُعتقلةٍ في إسبانيا في عهد فرَانكو.

وتروي (ندى) وهي الشخصية المِحورية فِي الرواية، بعض الأحداث في معتقل الخيام في جنوب لبنان وفي السجون الصهيونية، وكذلك تُشير لمعتقلات أخرى للسجناء السياسيين في البلاد العربية أو غير العربية، وكل هذه المعتقلات تلتقي في نقطة الحطّ من الكَرامة الإنسانية للمُعتقلين السياسيين والمُعارضين للأنظمة، فأصبح كلّ منهما تهديداً جديراً بالإبعاد والطمس والإلغاء. والرواية تنقل تجربة أجيال مُتتالية مع السجن، بدءاً من تجربة والد ندى، ثم تجربتها هي، وأخيراً تجربة شقيقها الصغير، ومنه على سبيل المثال ما وصفته بقولها: **"أتأمل عبد العظيم أنيس وهو يسترجع ما درّسه لطلاب جامعة لندن، يكتب على أرضية الزنزانة معادلاته الرياضية المعقّدة نزولاً على رغبة محمد سيد أحمد الذي أراد أن يتعلم، أحدق في أطباء معتقلين ينقذون ابن مأمور المعتقل من الموت، وفي جرّاح يجري عملية بالمتاح (وبلا مخدر) للصول مطاوع الذي سامهم العذاب، أحفظ المشاهد.**

... يحمِّل الصورة بتاريخ ووقائع وآلام: سب وشتم وتركيع وتجويع وترويع، ضربٌ على الرأس وضربٌ على الوجه وضربٌ على القفا والظهر وضربٌ على الصدر والبطن والذراعين والرجلين والقدمين.

ضربٌ بالعصي والشوم والجريد والقوايش و... لكمٌ بالأيدي وركلٌ بالأقدام وجلدٌ بالسياط وسحل"(٧).

ولا تخلو رواية من روايات (رضوى عاشور) من الأحداث السياسية ومشهد المظاهرات واعتصام الطلبة في حرم الجامعة ومُلاحقتهم، وهو مشهدٍ ملازم لكل رواية، ومن أمثلة انتقادها لسياسة (عبد الناصر) في سردها، إذ يُشكِّل هذا الآخر لديها صورةً سوداوية وظالمة، منه ما وصفته بقولها على لسان إحدى الشخصيات: "**يا كمال، بع ارض ابيك ومجوهرات زوجتك وأضف اليهما مدخرات العمر وابن المستشفى عليه وعمره وجهزه بالأجهزة والاثاث والمرضى والممرضات فيأتي عبد الناصر ويأخذها كلها على الجاهز!**

لو أن والد كمال، رحمه الله، كان معنا لوجد في الحديث موضوعه المفضل، كان يحب الجلوس مع الدكتور سالم يمضيان الوقت في انتقاد عبد الناصر وسياساته"(٨).

لكن هذه الرؤية السياسية الصادرة عن الروائية (رضوى عاشور) ما تَلبث أن تَتَبدل بتغيّر الأحداث في روايات أخرى(٩)، فصارتْ كموج البحر بين مدٍ وجزر، وأضحَتْ في تخبط وضبابية في رؤيتها للآخر السياسي، من ذلك قولها: "**لم يكن ذلك موقف بريطانيا وحدها، بل قوى مختلفة ذات مصلحة في الداخل والخارج، بدا ممكناً التعامل مع الضباط، بدا أنَّ الأمور تسير بشكل معقول طوال ثلاث سنوات، بدت**

الخارجية البريطانية مغتبطة بحكمة اختيارها لأهون الشـــرَّين، وبدت أمريكا مطمئنة وقادرة على التواصـــل مع الضـــباط الصـــغار، ثم فاجأهم الكولونيل المنتخب بشـــراء ســـــلاح تشـــــيكي، ثم بتأميم القناة، فبدأت حرب كان مقدراً لها أن تبدأ قبل ثلاث سنوات، واستمرت حتى موت الرجل، إذ واصل عبد الناصر مفاجأته الصادمة، ينقض الخرائط ويخل بالنظام ويهدم ما بنوا وأبرموا منذ عشرات السنين"(١٠).

فيبدو أنها رمزتْ لـ(عبد الناصر) بعبارات: (فاجأهم الكولونيل المُنتخب) ثُم عقبتْ على هذه العبارة بعبارة أُخرى في قولها: (واصــل عبد الناصــر مفاجأته الصــادمة) فجعلتْ من هذه الشخصية السياسية شخصية بطولية قد نجحتْ في هَدم مُخططاتٍ سَعَتْ قوى الاحتلال الخارجية من أجلها منذ عقود، فحطم مؤامراتهم في نَهب خيرات مصر.

وتُبيّن بعدها مدى حزن الشــعب على اســتقالته من منصــبه وشــدة تمســكهم به، وانطلاق الحشود الشعبيّة الواسعة لذلك، ثم الحزن الذي عمَّ جميع المُحتشدين بوفاته، ثم تســاؤلات تطرحها الروائية على لســان الراوي (الناظر) والتي تعكس رؤية غير ثابتة وعلى خلاف تلك الرؤية السابقة، وَصَفتْ كل ذلك بقولها: **"في يومي التاسع والعاشر من يونيه ١٩٦٧ أعدنا عبد النـاصـــــر، قلنـا لـه ارجع، نريدك، نحن بحاجة إليك، وأرجعناه، لكننا في الثامن والعشـــرين من ســـبتمبر، رغم كثرتنا الهائلة والأكبر من المرة الســابقة، لم نســتطع أن نعيده، ســاعتها كنت أمشــي مضــطرباً، عاتباً عليه، حزيناً على رحيلـه، يلِّح عليَّ أخي إلى حد أنني كنت أمدّ يدي قليلا كأنـه ســـــينتبـه فيمســك بها فنمشــي ســويا بنفس الخطوة في الزحام، أدرك ما لم أدرك ســاعتها من حجم الناس، لأن الأفلام التســـجيلية التي التقطت لذلك اليوم تظهر حركة النعش الملفوف بالعلم والمسجى على عربة مدفع،...**

رحل، وجدّت في غيابه أحداث كثيرة قاسية، وكثيرا ما أتساءل إن كان الموت رحمةً يحجب تلك الأحداث عنه، أم سجناً يتيح له أن يرى ولا يسمح له بالحركة أو حتى بالكلام؟ أتساءل إن كان يراجع نفسه وهو يتأمل حساب المكسب والخسارة، أم يحرمه الموت من نعمة البصر ويحوله إلى رهينٍ لمحبسين؟ وكثيراً ما أفكر إن كان الموت ثبته في منتصف العمر كما كان لحظة رحيله، أم كبره، كما كبر أخي، فصار شيخاً في الرابعة والثمانين من عمره ناحل الجسم وإن احتفظ بقسمات وجهه ونظرة عينيه التي لا يخطئها أي منا، نحن الذين نشأنا وتربينا في فترة ولايته!

أعترف أنني لم أغفر له. داهمني موته وأنا مشتبك معه، أسائله بقسوة: ماذا تفعل لو...

كان حزناً غريباً لم أجربه لا بعدها ولا قبلها، حزن صاعق مجبول بالغضب والخوف، أو بمشاعر أخرى يصعب عليَّ تعيينها. ذلك على أي حال تاريخ مضى، أقصد أن السنوات لملمت تلك المشاعر، لأنها عادة ما تفعل ذلك، ولأنها تتيح مسافة وهدوءاً يسمحان بتقييم أكثر عدلاً لما حاول الرجل إنجازه في ظرفه الصعب وعمره القصير، والأهم ربما أنني وأنا في الخامسة والستين من عمري أملك أن أنتحل له الأعذار على طريقة الآباء، أخفض له جناح الرحمة، أحيانا أتذكره وأفكر فيه، وفي أحيان أخرى يغيب عن خاطري كما تغيب عن وعينا اليومي شخصيات وأحداث شغلتنا حين قرأنا عنها في كتب التاريخ، أو عاصرناها وولّت فأصبحت هي أيضا تاريخاً"(١١).

وهذه الهوية المُتغيّرة وغير الواضحة تظهر بصورة جَليّة في المُوازنة التي عَقدتها الطفلة (ندى) بين (عبد الناصر) الذي يُشكِّل تهديداً للدول الاستعمارية، وبين أبيها المُعتقل في سجون عبد الناصر، فتظهر هنا الهوية السياسية مَمزوجة بالشعور

الوطني, حين تُمثل هذه الشـخصـية السـياسـية قائد البلد الذي هزم الأعداء، فتقول: **"قامت أمي وأتت بالأطلس وراحت تطلعني بهِمّة على خريطة آسـيا وموقع الهند الصينية، وتعزز الجغرافيا بالتاريخ، فتحكي متى دخلت فرنسا الهند الصينية ومتى خرجت منها وكيف... والآن أمريكا... وأنا أهز رأسي وأقول: واضح واضح جداً، ولم يكن أي شيء واضحاً لسبب بسيط هو أن رأسي كان منشغلاً بسؤال جديد، قالت: أمي: كان عبد الناصر يشكل تهديداً للفرنسيين ولذلك ضربوه. دخلت هذه المعلومة بقوة في المناظرة التي تشغلني بشأن أيهما على حق، الرئيس الذي وضع أبي في المعتقل، أم أبي الذي تسببت آراؤه في سجنه ونفيه عن أسرته كل هذه السنين"**[١٢].

و في بعض الأحيان تُحاول (رضـوى عاشـور) أن تُظهر هذا الآخر السـياسـي بصورة مُحايدة، وفي أحيانٍ أُخرى تستخدم أسلوباً غير مُباشر لاستنكار بعض ما تقوم به هذه الشخصية؛ وعلى هذا تكون نظرتها جزئية ومُتبايّنة وليست شمولية، فتذكر ما لهذه الشخصية وما عليها، فتقول:

" – وهل كنت مع فرنسا عندما ضربت مصر؟

ضحكت

– كيف أكون معها؟

– ولكنك فرنسية!

– هل أنت مع اعتقال أبيك؟

– طبعا لا.

– إذن لا توافقين على كل ما تقوم به حكومة بلدك!

فهمت فضحكت ... "[١٣].

وتلجأ الروائية في بعض الأحيان للأسلوب الرمزي في نقدها للسلطة السياسية، فتقول عن استنزاف ثروات الشعوب من قبل الحُكام، على لسان إحدى الشخصيات قائلة:

" – كان أبوك من الأغنياء إذن؟

– لم يكن أبي يملك اللؤلؤ.

– كيف، ألا يصيده بنفسه؟

– كان يغوص مع غيره من الغواصين إلى قاع البحر، كل غواص يحمل سكينا ويربط خصره بحبل يمسك بطرفه الآخر شخص يبقى في المركب، الغواص يقفز إلى الماء ويغوص فيه والممسك بالحبل يرخيه، وعندما ينتهي الغوص يشده فيصعد الغواص إلى المركب وقد ملأ كيسه بالمحار الذي يأخذه ريس المركب ويفرزه ويعطيه للسلطان الذي يدفع لريس المركب والغواصين أجر يومهم.

– ولا يعطيهم أي لؤلؤ؟

– لا..

– ولا لؤلؤة واحدة!

– لا..

– غريب!"(١٤)

ففي النص إشارات رمزية لسياسات السلطة الناهبة والسالبة لخيرات البلد وطاقات أفراده البدنية؛ بحملهم على مواجهة الموت دون أن يكون لهم نصيب منها.

وتظهر هذه الهوية الرافضة لسياسة السلطة عند (د. خولة حمدي) في معظم أحداث رواياتها لكون هذه السلطة مُعادية للدين، ومنه على سبيل المثال ما تبيَّن من

الحوار الذي وضعته بين شخصيتين من شخصيات رواياتها والذي تساءلتْ فيه شخصية (ليلى) عن المدرسة القرآنية وهي الشخصية التي قَضتْ حياتها في المهجر وتجهل كل شيء عن السلطة التونسية: "**المدرسة، تلك مسألة مختلفة، عمرها لا يزيد على السنتين، فقد كان كلّ نشاط مرتبط بالدين محظوراً في عهد الرئيس المخلوع، والمبادرات القليلة التي نشأت في ظلّ حكم الديكتاتور كانت محتشمة ومراقبة عن كثب، لكنّ الحاجّة فريدة أقدمت في ذلك الوقت على افتتاح الدار، رغم المضايقات الأمنيّة لصاحبة المدرسة وطلبتها، تعلّم القرآن وتعليمه ظلّ متوقّفا لعقود، بعد إغلاق الجامعة الزيتونيّة، وقد ازدهر السوق بعد الثّورة، وانتشرت الجمعيات القرآنيّة في الأحياء الشعبيّة والراقيّة على حدّ سواء! ...**

تعلّم القرآن محظور؟ لقد كان الأمر غريباً بالنسبة إلى ليلى، ربّما تحتاج درساً في التاريخ الحديث"(١٥).

و تقول في موضع لاحقٍ على لسان إحدى الشخصيات: "**بعد الثورة، تزايدت المنتديات الفكريّة، وتوافد مفكّرون ومثقّفون من مختلف أنحاء العالم لزيارة البلاد، بعد أن كان النظام السابق يمنعهم! هذا ترف لم يكن متاحاً منذ شهور قليلة!**"(١٦).

وهذه الهوية الرافضة لسياسة السلطات المُعاصرة المُتتالية تظهر عنها بصورة أعمق في مُستهلّ أحداث رواية (أرني أنظر إليك)، في قولها: "**حين جاء الانقلاب الأبيض، حسبتَ وحسب رفاقك أنّ زمنا أسود قد ولّى، وزمنا آخر مشرقا قد أقبل، فقد أخلى سبيل عدد من القادة الذين زجّ بهم نظام بورقيبة في المعتقلات، وبدأت السلطة حوارا مع الاتّجاه الإسلاميّ لإشراكه في (صناعة التغيير).**

سنتان، هما عمر الأمل.

بعد ذلك ظهر وجه آخر للجنرال المنقلب، حين انقلب مرّة أخرى على وعود التّسوية والشراكة ووضع اليد في اليد مع جميع الجهات لبناء مستقبل البلاد! انحسر الأمل حين مرّت موجة اعتقالات ثانية سنة ١٩٨٩، لتحصدك فيمن حصدت، أقمت في حبسك ثلاثة أشهر هذه المرّة، بينما بلغتك أنباء هروب بعض القادة إلى الجزائر، كانت تفاصيل الكابوس الأسود تتكرّر من جديد"[١٧]. فهاهنا تتجلى في مُستهل أحداث الرواية هوية سياسية رافضة للسلطات المُتعاقبة في تونس.

ومن وجوه هذا الرفض أيضاً وصفها للثورة التي أندلعتْ في تونس بقولها: **"مساء الخامس عشر من يناير ٢٠١١، كان أفراد العائلة جميعاً غائبين عن المنزل، باستثناء ياسمين وطفلها، كانوا قد انضمّوا إلى المظاهرات التي نظّمتها الجالية التونسيّة لمساندة الثورة الشعبيّة، لتتحول الحركة الاحتجاجيّة إلى مسيرة فرح عارمة بعد الرحيل المفاجئ للرئيس التونسي وتخلّيه عن السلطة، انطلقت المظاهرات الحاشدة بحضور نحو ثمانية آلاف من التونسيّين المقيمين بباريس وضواحيها من ساحة (الجمهورية) انتهاءً إلى ساحة (شاتليه) ... رافعين الأعلام التونسيّة، منتشين بتحقيق حلم بعيد المنال، لم تكن زهور وعائلتها قد زاروا موطنهم منذ عشرين عاماً، بعد أن أصبح عبد الحميد مطلوباً لدى النظام السابق، إثر انتخابات ١٩٩١.. والآن، فتحت أبواب الوطن على حين غرّة"**[١٨].

ويظهر كذلك في قولها: **"حين رجع جموع المتظاهرين إلى المنزل كان هناك شيء غريب في الأجواء وفي النّظرات التي يتبادلونها، شيء آخر غير الفرح الذي**

حطّ بين جنبات القلوب منذ نهار الأمس الأسطوريّ لرحيل زعيم عربيّ بعد خروج شعبه يحتجّ في الشوارع في سابقة فريدة من نوعها!...

- لقد منّ الله علينا برفع الظّلم عن بلادنا.. ونظنّ -أنا ووالدكم - أنّ الأوان قد حان، لنكون جزءاً من قصّة الوطن، مرّة أخرى!"[١٩]. فجعلتْ الروائية (خولة حمدي) من هذا الآخر السياسي السلطوي السبب في فَقد هذه الشخصيات أو هذه الـ(أنا) العربية لهويتها وحقّها في الانتماء الوطني.

❋ الهوية والآخر الديني سياسياً

تَمقُت (د. رضوى عاشور) الآخر اليهودي، لكنه اليهودي الصهيوني، فلم تكن هذه النظرة إلى اليهودية ديناً بل إلى اليهودية سياسياً، وكثيراً ما وصفتْ على لسان إحدى شخصيات رواياتها العلاقة الحميمة بينها وبين جارات يهوديات لها في العمارة في مواقف وفصول عديدة[٢٠]، وكذلك أفصحتْ في الرواية ذاتها عن نظرة إيجابية وموضوعية من خلال توظيفها لشخصية (إدي اليهودي) بحواراته العديدة مع شخصية الناظر/ الراوي، إذ كان (إدي) صديق الطفولة لأخيه الشهيد، والذي خاض التجربة كيهودي صهيوني ظن أن هذه الحياة هي الحق الذي يطلبونه، ثم عَدَل عن تلك الحياة المُلونة بسفك الدم، ويشرح ويُسهِب في شرحه ذلك في كتابه الذي قام بنشره[٢١]، والذي كان قد جاء إلى القاهرة حزيناً وإلى شخصية الناظر بالذات ليعزيه عند معرفته بموت أخيه صديق الطفولة لـ(إدي)، لكن الناظر استقبله ببرود وتحفظ، فلاحظ إدي ذلك، فغادر ثم بعث له بمظروف من قصاصات مصورة لمقالات منشورة بالفرنسية وبخطاب، كان هذا الخطاب هو الذي يُبرأ هذا الآخر من أن يكون ذو صورة مستهجنة على إطلاقه، يقول فيه:[٢٢] **"جئتك من أجل أخيك، فأنا أدين له بلحظات هي الأجمل**

والأكثر سعادة في طفولتي، لم أقصدك لذاتك بل لأنك أخوه، ولم أجد من أذهب له سواك لأقول إنني حزنت لموته، لم تحسن استقبالي، أشعر أنك انتهكت ذكرياتي، كأني جئت أطلعك على خطاب حميم أو صورة عائلية قديمة قاصداً مشاركتك، فإذا بك تُسقط قاصداً نقطة حبر أو تشطب بهمجية على سطر أو جزء من الصورة.
بدا لي وأنا جالس معك أنك تريد أن أفسر لك ماذا أقول الآن، وأين أقف من كل ما يحدث حولنا، كدت أطمئنك، كدت أحكي لك عما أواجهه من ضغوط وتهديدات، ولكنني أحسست أنني لست متهما لأدافع عن نفسي، قد تعرِّفك المقالات التي بين يديك بمواقفي. إدي صالح.
مزقت الرسالة، ألقيت نظرة سريعة على المقالات، ينتقد الحكومة الإسرائيلية على غزو لبنان ... "[٢٣].

فكان هناك مقصد وراء استخدام مصطلح (يهودي) بدلاً من مصطلح (إسرائيلي)، للفرق الواسع ما بينهما وتأكيداً على التعصب الصهيوني وطمعه بإنشاء دولة إسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات. فيُسجَّل للروائية هذه الموضوعية، إذ استخدمتْ لغة تبتعد عن التعميم.

وتظهر هذه النظرة الموضوعية عند (د. خولة حمدي) في مواضع كثيرة ومنها ما وضعته على لسان شخصية (مالك والذي كان قد بدأ بالتشكيك بالدين والميل نحو الإلحاد ثم مرحلة الإيمان مع التخبط ما بين الشرائع) لكن هذا لا يمنع من أفكارٍ بثتّها الروائية عن إنسانية هذا الآخر الديني، منه قولها: "**حين لوّح أيوب بفكرة الانضمام إلى بعثة طبيّة متطوعة تابعة لهيئة الإغاثة العالميّة، هلّلت لها ورحّبت... إذن وجدت لك مكانا ضمن القافلة التي انطلقت في اتّجاه فلسطين المحتلّة بعد**

الانتفاضة الشعبيّة الثانية... لم يكن عدد المسلمين في قافلة الأطباء بالكثرة التي حسبتها، كان هناك الكثير من السّافرات والمتبرّجات بشعورهنّ الشقراء المتهدّلة وأذرعهنّ العارية و ...، والكثير من الكفّار على غير ملة الإسلام، الذين لم يمنعهم كفرهم من إبداء علائم الرحمة، جميعهم كانوا قد تركوا عائلاتهم ووظائفهم ونعيمهم الدنيويّ وساروا لمواجهة معتد غاشم سلب إخوانهم في الإنسانيّة الحريّة وأبسط أسباب الحياة الكريمة"(٢٤).

ومنه ما ورد على لسان الشخصية ذاتها قولها: **"تحدّثت راشيل فيما بعد عن تجربتها في فلسطين، كان الزوجان يزوران الأراضي الفلسطينية للسنة الرابعة على التوالي، يقضيان إجازتهما السنوية كمتطوعين، قالت راشيل مع ابتسامة:**

– بالمناسبة، أنا يهوديّة، جدّتي لأمّي نجت من الهولوكوست، وهاجرت إلى الولايات المتّحدة.. ثمّ استقرّت والدتي في شبابها في بريطانيا، وهناك ولدت وعشت حياتي كلّها، جدّتي لم تكن يوما مساندة لسياسة الاحتلال! من عرف ويلات التعذيب والتهجير، كيف له أن يقبل تطبيق نفس الممارسات على الآخرين؟!

أثناء عيادتها، لم تكن راشيل تتردّد في توضيح هويّتها اليهوديّة، وكانت تؤكّد على رفضها وعائلتها لما يحصل على الأراضي الفلسطيّنية.. وتطوّعها ما هو إلّا أقلّ ما يمكنها فعله للاعتذار عمّا يصدر عن بني جلدتها، وكان الفلسطينيّون يتقبّلونها.. يهزّون رؤوسهم في تفهّم، ويصافحونها في حرارة، يكفي أنّها كانت هناك"(٢٥).

ومنه ما نسبتّه إلى شخصية ندى اليهودية المُلتزمة بدينها وتقاليد وعادات هذا الدين، وفي الوقت ذاته كانت قد انضمّتْ إلى صفوف المقاومة اللبنانية ضد إسرائيل(٢٦)، ومنه قولها: "**المقاومة. كان انضمامها إلى تلك الحركة الشبابية الفتية تحقيقا لأحلام راودتها قبل أن تعرف أحمد، ونمت في داخلها مثل نبتة لبلاب متسلقة تتوق إلى نور الشمس، بعد أن عرفته، كانت تلك الخطوة عتقا من قيود نفسية قديمة لتربية يهودية تنصّ على الالتزام بمصالح الطائفة وحدها، وتنفيسا عن قناعات لطالما اصطدمت بجدار صدّ قاس من المحيطين بها، أحسّت وهي تنطلق في رحاب حياتها السرية الجديدة بتوحّدها مع المثاليات الإنسانية التي آمنت بها... كان اشتراك يهودية في المقاومة الإسلامية أمرا غير مسبوق، ومحاطا بالتكتم والسرية التامين، حتى إنَّ عددا من رفاق السلاح كانوا يعتقدون أنها تلعب دوراً وتتقمص هوية غير هويتها**"(٢٧). وقبل ذلك مساعدتها هي وأخيها (الذي هو شخصية القس المسيحي) للشخصيتين الرئيستين في إحدى رواياتها (أحمد وحسان) حين أُصيبَّا خلال عملية عسكرية حين كانا في مهمة في أراضي الجنوب اللبنانية ضد الاحتلال الإسرائيلي(٢٨)، فتقول فيه الروائية: "**فُتِحَ الباب مُجدّداً وظهرت الفتاة مبتسمة، نظر إليها حسان في تحفّز، وتشنّجت أطرافه حين لمح الرجل الذي يتقدّم من ورائها. لكنها سارعت بالتوضيح قائلة وهي تفسح المجال للرجل:**

- لقد طلبت المساعدة من أخي... يمكنه أن يعاين جرح المصاب... حدّق حسان بعدم استيعاب في الرجل الذي ارتدى زيّ راهب كنيسة، وصليب من الحجم الكبير يتدلّى من عنقه...تقدّم الراهب الشاب في صمت إلى الطاولة، وهو يمسك حقيبة الإسعافات الأولية. فتحها بحركة بطيئة، وتناول قفّازات نظيفة، كأنه جرَّاح حقيقي، أضافت ندى بصوت منخفض:

– ميشـــال درس التمريض قبل أن يلتحق بخدمة الكنيســـة... وهو بارع في تقطيب الجراح... بدت الدهشة على حسان وهو يراقب عمل الراهب الدقيق والهادئ"(٢٩).

✱ نقد الـ(أنا) العربية

لم يكن انتماء الروائية (رضــوى عاشــور) إلى قومية ضــيقّة أو هوية مُعينة، بل كانت صاحبة انتماء عميق للأمة العربية، فحملتْ الروائية الرسالة تجاه أُمتّها، وحَملتْ عنها هَمَّها واســـمها. ومن ذلك ما نَســـجتّه بروحٍ مُتألمة من الجِدال والمُحَاجَّة بين الأخوين حول مدى نُصرةِ العروبة، وبأمل شخصية (أبي صـادق) ويقينه أن الجيوش العربية ســـتَتدخل للدفاع عن فلســـطين، فيما يرد عليه أخوه بأن هذه العروبة التي يَســـتَنصـــر بها لن تتدخل ابداً وإن تدخلتْ فســتُهزم، ويختصـــر عليه هذا الجَدل بأن المكتوب يُقرأ من عنوانه:

" – أعرف أنها ســـقطت في يومين، لكن المجاهدين ما زالوا يقاومون في الســـهل والجبل من الجليل إلى غزة، فلا يمر يوم واحد دون أن يحققوا انتصـــارات. والجيوش العربية ستتدخل، حتماً ستتدخل.
– يا خوي المكتوب ينقرى من عنوانه. لن يتدخّلوا، وإن تدخّلوا سيهزمون"(٣٠).

ومن ملامح هذه الهويـة مـا تطرقـتْ إليـه من نظرة الازدراء التي يُقـابـل بهـا الولـد الفلســـطيني من زميله اللبناني _بحســـب ما ذكرته الروائية_ وتَحوله عنه، واشـــمئزازه ونفوره منه فور معرفته بكونه فلسطيني نازح ولو لم يسكن المخيمات، وكأنه حشرة قذرة سقطتْ في إناء أحدهم، فكان لسوءِ المُعاملة التي يتلقاها الفلسطيني من جاره اللبناني أو من بعض مُجتمعاتْ هذا الجار، النصيب الواسع في روايتها ويمثل نقداً مُلازماً لكل

الأحداث المُشــابهة، ومنه قولها: "**المُخَيَّم تعيش فيه أو خارجه هو حكايتك لا مهرب لك منها، وزميلك في الصف ينقلب عليك فجأة فلا تعرف ما الذي أغضبه، لتكتشف بعد يوم أو يومين أنه عرف أنك فلسطيني، وأن وجودك مجرد أنك موجود، وأنك أنت لا غيرك أمر مســتفِزّ يثير الغضــب أو الاســتياء أو على أقل تقدير، القرف! كأنك حشرة سقطت لسوء حظه في صحن الحساء، فتعرف قبل أن تعرف بزمان، معنى الكتائب ومعنى القوات وما الذي ينتظرك على أيديهم، وأنك ابن مخيم حتى لو حالفك الحظ ولم تسكن فيه!**"(٣١).

ومنه أيضاً ما سردَته (رضوى عاشور) من حدثٍ جانبي مع شخصيتها الرئيسة في رواية (الطنطورية) بتهجّم امرأة لبنانية عليها أثناء تواجدهم في الملجأ مُتهِمة إياها بكونها وبكون شعبها السبب في وضع لبنان الحالي إذ صاروا هدفاً للصهاينة. لكنها في الوقت ذاته وفي الحدث نفســـه تُظهر وجهاً آخر لهذه الذات اللبنانية؛ حين تقوم شخصية (أم علي اللبنانية) بالاعتذار نيابة عن الشخصية الأولى (السلبية) بتلمس المُبررات لها، كون هذه الإهانة غير مقصـــودة لذاتها، إنما هي بفعل الحرب التي تشعث القلوب كما تشعث الثوب والشعر، وفيما بعد تسلك الشخصية الأولى الاتجاه والفعل الإيجابي ذاته، فتقول: "**يوم صـــرخت فيك جارة من الجارات وقالت لك: أنت السبب .. أنتم السبب .. لولا الفلسطينية لما خربت بيتنا إسرائيل، كانت تصرخ فيك وكان وجهك لونه أصـــفر وغريب، توقّعت أن ترُدّي عليها أن تضـــربيها كفّاً على وجهها، ولكنك جذبتِني من يدي وسرتِ إلى أبعد زاوية في الملجأ...**

مدهشـــة أم علي، لم تحدثني في الموضـــوع طوال وجودنا في المخبأ، بعدها جاءت لزيارتي في البيت وطلبت أن أصـــنع لها فنجان قهوة، احتســـتها معي، ثم قالت: في

الحرب لا يتصـــرف الناس كما خلقهم ربنا، يُجنُّ الخلق ويفلت الميزان، ســـاعتها لا يكون الشعر وحده أو الثوب مشعَّثاً بل يتشعَّث القلب، أعرف أنها آلمتك، لكنك ست الناس قولي: الله يسامحها وسامحيها

لم أعلِّق.

قالت أم علي: سآتي بها لزيارتك مساءً فتعتذر لك ونشرب القهوة سوياً.

لا أدري ما الذي قالته أم علي للجارة التي أهانتني، لم تأت بها لزيارتي، لأننا بعد ســاعات وجدنا أنفســنا جميعاً في الملجأ، لم أقترب من الجارة ولا هي اقتربت مني، ولكن ابنها كان يلعب مع مريم بالقرب مني، ثم في لحظة قصف مزلزل فردت ذراعيّ واسـعاً وأحطت بالصـغيرين كلٌّ في ذراع وضـممتها إلى صـدري وتقوّس كتفاي ومال رأسي عليها لأحمي رأسيها، بعدها جاءت المرأة وقالت: سامحيني.

بكت."[٣٢]. فقد حَمل الاغتراب المكاني بُعداً مأســاوياً يتشــكل في الذات الفلســطينية اللاجئة في مُخيمات البلدان الأخرى، حيث تُعاني الغربتين، ولا يُمكن لشـيء تعويضـها عن وطنها الأصلي وعن هويتها الأولى.

وتتحدث الروائية عن ذاتٍ عربية مُنكسرة مهزومة تَتَجلى بشكل حوار يُمثل تصارع الأجيال الفكري وموقف كلٍ منهم القولي والفعليّ تجاه الأحداث التي ألمّتْ بـالأمـة العربية، فتضـــع حواراً على لســان شــخصــية الفتى (محمود) يُحاور فيه شــخصــية (الناظر) بسخرية مُبطنة من تقاعس الموقف العربي:

"زارني اليوم محمود، قال:

– ستضرب أمريكا العراق، ما الذي سنفعله؟

واصل كأنه لم يطرح على السؤال:

– لن نفعل شـيـئـا! يقولون سنضربكم، سنضربكم، سنضربكم، ثم يضربون، نتلقى الضـربة كأننا نتفرج على فيلم، ثم ندخل لننام..."(٣٣). وكأنه صـراع سـياسـي يثور ويخرج من مكانه من ذات الروائية، فهناك تسـاؤلات حول ما يدور في هذه الحوادث، ولســان الحال يجيب على تلك التســاؤلات من خلال الحوار الذي جرى على لســان شخصيات الرواية في قولها:

" – الصغار الذين يواجهون الدبابة في فلسطين، يفعلون عـمـلاً جنونياً، يـخـتـارون لحظة مطلقة من المعنى، والقدرة، حرية مــركــزة وبعــدها الموت، يشترون لحظة واحــدة بكل حياتهم، هذا جنون، ولكنه جنون جــمــيــل لأن اللحظة أثمن من حياة ممتدة في وحل العجز والمهانة .

– لا يذهب الدم هباءً!

– يا رجل يا طيب، يذهب هباءً حين لا تتحقق نتائج لكل هذه التضحيات.

لم تحقق الانتفاضــة الأولى شـيئاً، وســتنتهي الانتفاضــة الثانية بضــرب العراق، وتسوية هزيلة وينغلق الدفتر على دم الشهداء كأنه زهرة أو فراشة مجففة، للذكرى!

صحت في الولد:

– كف عن هذا الكلام!

كنت أكثر إرهاقا من أن أدخل في محاجَّة أثبت فيها أن دم أخي أصبح ماءً"(٣٤).

ومن مظـاهر هذه الهويـة عنـد الروائيـة (خولـة حمـدي) تعليقهـا عنـد الحـديـث عن القضـية الفلسـطينية التي ما برحت تُشكل أهم القضـايا التي تحدثتْ عنها الكاتبة، لكن في الوقت نفســه تحاول إماطة اللثام و بجرأة عالية وواقعيّة في الوقت ذاته، عن بعض

المفاهيم الشائعة في الوعي الجمعي، المُتُشكِّلة في الأيدلوجيا العربية أو المسلمة، فتقول في النص الحواري الذي وظفتّه بين شخصيتي إحدى الروايات، فتقول:

" ... بينما كانت آية تواصل:

– ليس كلّ الفلسطينيين سواسية.. مثل كلّ شعب من شعوب هذه الأرض، فيهم الصالح والطالح، فيهم البرّ والفاجر، وفيهم الصادق والخائن.

ابتسم عمر وقال:

– في وجداننا كلّ فلسطيني شريف.. وكلّ ما يأتي من تلك الأرض المباركة مقدّس!

– لكن الواقع غير ذلك.. نحن شعب قد تفرّقنا في أصقاع الأرض منذ أكثر من نصف قرن، وكثيرٌ منّا للأسف رضوا بأوطان بديلة وفترت همّتهم، وما عاد لهم مطمع في أرض أجدادهم!"(٣٥) ، فتُقدم الروائية حُكمّاً ونقداً موضوعياً على لسان شخصية الفتاة الفلسطينية.

ومن مظاهر هذه الهوية نقد الواقع العربي بعدم رجوعه للتاريخ للاعتبار منه، وكذلك نقد مسألة عدم استيعاب دروس التاريخ والتعلّم منها وتصحيح هذا المسار، وكذلك مسألة تزييف التاريخ، فتطرح هذه المفاهيم بشكل حوار بين شخصية (مالك) وشخصية العالم الفقيه (خاله عمار)، فتقول على لسانهم:

" – نحن لا نقرأ التاريخ.. وإذا قرأناه، كانت قراءتنا سطحيّة، لا نعتبر ولا نتعلّم الدروس، لذلك تّكرّر الأمم الأخطاء ذاتها، وتتكرّر المآسي والنّزاعات الخرقاء!

فتردّ معترضا:

– أيّ تاريخ نقرأ يا خال؟ أليس ما نتعلّمه تاريخاً مزيّفاً مغلوطاً يكتبه المنتصر؟ قبل أن نقرأ التاريخ، وجب أن نحقّق تاريخنا ونعيد كتابته!

يبتسم مستحسناً ثمّ يضيف في ثقة وتؤدة:

– تذكّر يا مالك أنّ الناس على صنفين: فئة قليلة تصنع الحدث، ليكون هو التاريخ.. وأخرى كثيرة تحرّره أو تقرؤه، ونحن يا بنيّ ممن يصنعون التاريخ.

لكنّك تردّ في إصرار:

– مشروع إعادة كتابة التاريخ.. ألا يبدو هذا هدفا ساميا يستحقّ العمل عليه؟"[٣٦].

فقراءة التاريخ تُحقق رؤية واضحة عن الماضي، فتكمن أهميّة دراسة التاريخ دراسة مُتعمقة في استلهام العبرة والاستفادة من الماضي وتجنّب الوقوع في الأخطاء ذاتها ومحاولة البحث عن حلول لهذه الأخطاء، فالتاريخ من أهم العناصر التي يستند عليها أي مجتمع في تطوّره أو انحطاطه.

ومن نقدها لهذه الذات أو الـ(أنا السلبيّة) خلال ثورات الربيع العربي عامة، والربيع التونسيّ بشكل خاص، ترمي الكاتبة إلى فشل الثورة في بعض جوانبها، وتُسلط الضوء على الثورة المَغدور بها في تونس وعمّا آلت إليه الأمور، منه قولها: "**هل يمكن لوطنها الثائر وقد استردّ حريّته وكرامته، أن يصالح خونة الماضي، يربّت على أكتفاهم ويحتضنهم من جديد كأن شيئاً لم يكن؟**
هل يمكنها أن تصالح ذاتها الآثمة وتصفح عن خطاياها؟ تذر الرّماد في عيني ضميرها، وتنسى؟
لا!! الوطن يحاسب مفسديه ويفرض على كلّ من سرق ونهب وآذى واستنزف وخان أن يدفع الثّمن!"[٣٧]. فتعمّد الكاتبة أن تحيط هذا الشك بصيغة توحي بعدم اليقينية والقلق؛ لذلك تلجأ إلى صيغة التساؤل، وتُقارن ما بين خيانة أبناء الوطن لوطنهم وبين خيانة النفس لذاتها وضميرها، فقدمتْ (د. خولة حمدي) صورة عن روح

الانتماء للمكان عن طريق روايات الربيع التونسـي على الرغم من سـنوات الاغتراب عن بلدها إلا أن الهوية القومية ظلتْ مغروسة في ذاتها.

وتتجلى عنها هوية وشعور بالاضطهاد حتى من قبل الـ(أنا) وليس الـ(آخر)، هذه الـ(أنا) التي لا تَقبل تألق كل نجم مُضيء من أُمتها وتحكم عليه بالأفول حتى قبل سطوعه، وفي الوقت ذاته تعظّم وتمجّد الآخر وإن كان أقل شأناً، فتقول عن إحدى الشخصيات: "**فرنسا ستفخر بانتماء باحث متميز مثله إليها، اغتنم الفرصة ليغيّر اسمه حينها، كانت لديه فلسفة خاصّة بالموضوع، لم تكن مسألة التّمسك بالجذور والافتخار بالانتماء العربي تعني له شيئاً، وكان يحتاج اسماً أعجمياً ليتوّج مسيرته الحافلة ويضع ختم الجودة على سيرته الذاتيّة، كان يدرك أنّ الأبحاث الصادرة من مخابر أوروبيّة أو أمريكيّة تلقى قبولاً أكبر في كلّ أرجاء العالم، حتّى في البلاد العربيّة حيث يولون اهتماماً كبيراً إلى اسم المحاضر الزائر وبلده أكثر من محتوى بحثه ومحاضراته**"[٣٨].

❋ طَمس الهوية الإسلامية، قتل (الأنا العربية) وصورة الوطن المسلوب

أدرك الآخر(غير العربي) أهمية الأرشيف الثقافي الحامل للذاكرة الجماعية: اللغة، والأدب، والعادات، ولكي يمضـي برنامج الاجتثاث إلى نهايته فلا بد من إتلاف ذلك الأرشيف، كانت عملية إعدام الأرشيف طويلة ومريرة طالت أعماق المسلمين، فنبش في وجدانهم ونواياهم، مدة طويلة، وعوقبوا جماعات بسبب ذلك.

فأبدَعتْ الروائية (رضوى عاشور) في استثمارها للإشارة إلى مدى الألم والتخاذل والاستسلام الذي طُبع في نفوس أهل الأندلس عن قادتهم وفقهائهم وتعجبهم من خنوع

رموز بلادهم في عبارة (بكوا ووقعوا)، وتتُبع الكاتبة هذه العبارة بتدخلّها في مُجريات الأحداث وإبداء رأيها بأسلوب الاستفهام الانكاري بقولها: (كيف يتعهد ملك بتسليم ملكه كيف...) فاستطرادها هذا يُشعر المُتلقي وكأنها تَستحضر ألم هذا الماضي لتُقارنه بألمٍ حاضرٍ في نفسها، فترمز إليه مع مرارة نفسية وصرخة مكبوتة لا تقوى على البوحِ بها، فتقول: "**بكى أبو عبدالله محمد الصغير وقال: إن الله كتب عليه أن يكون شقياً، وأن يتم ضياع البلاد على يديه، انتحب الوزراء والقادة والعلماء ورددوا لا حول ولا قوة إلا بالله ولا راد لقضاء الله، اعترض موسى بن أبي الغسان على الاتفاق، وطالب الحاضرين برفضه؛ ...كرر الحاضرون أنه لا مفر من قضاء الله، وأنَّ شروط المعاهدة أفضل ما يمكن الحصول عليه ... بكوا ووقعوا .**

كيف يتعهد ملك بتسليم ملكه؟ وكيف يقضي بتعهد قادة البلاد وفقهائها وكافة أهلها بأن يسلموا طواعية قلاع الحمراء وحصنها وأبراجها؛ وأبواب غرناطة والبيازين وضواحيها؟"[٣٩].

فتنتقل الروائية بين حالتي الألم والتساؤل المرير الذي يعتصر فؤادها، وما بين التوبيخ والاستنكار والاستفهام عن مصير هذا الشعب ومآله في ظل هذا الخضوع و الانسلاخ عن الانتماء الوطني، فتصبح الأندلس في ثلاثيتها مُفتاحاً لاستكشاف الهوية الفردية، والهوية الجمعية العربية والإسلامية، بمحمولاتها التاريخية والدينية. وتتجلى هذه الهوية بالتمسك بهذا الوطن المفقود مهما كان الثمن، بقولها: "**ولم تكن مريمة تصطنع كلاما تطمئن به حفيدها، إذ كانت تعرف أن لكل شيء ثمناً، وكلما كان المطلوب عزيزاً وغالياً ارتفع ثمنه وظل رغم ذلك زهيداً، وعندما حمل لها عليّ بعد أسابيع قليلة، خبر مقتل وجهاء البيازين الذين كانوا قد سجنوا قبل عام، قالت:**

– **مرادنا غال يا عليّ ولكل شـــيء ثمنه"**(٤٠). وبتعليقها على هذا الحدث في موضـــعٍ لاحق، بقولها:

" الطـــــريق نفســها التي قطعها قبل ســبعة وعشــرين عاماً عارياً ووحيداً... تأتيه غرناطة، يقول يا غربتي! ولكن يطلع عليه النهار، باطل وقبض ريح أم شيء سوى ذلك؟ يقطع عليه السؤال طريق الذاكرة ويبقى كالسيف معلقاً لأنَّ الحكمة في كل ذلك غائبةً أو مطموســـةً، ولأنه وهو يقترب من نهاية عقده الســـادس لا يدري إن كان عليه أن يسلِّم بالنهايات أم يكابر ويواصل؟ وما الذي يواصله، وكيف، ولماذا، وإلى أين؟ أم يحـرن كـالـبـغـال ويتـمـسـمـر في الأرض؟ يسحبونها من تحت قدميه، ولم تكن بساطاً اشتراه من سوق بالنسية الكبير، "لكل شيء ثمن، وكلما عز المراد ارتفع ثمنه يا عليّ"، فما الثمن المطلوب يا مريمة؟ قصّـرنا فغضـب الله علينا، أم أنه كتب في لوحه المحفوظ سيرة عذابنا قبل أن نخلق أو نكون؟"(٤١).

وتتجسد صورة المُرحلّين من الأندلس بما وصفته الكاتبة بمشاهد وأوصاف مُؤلمة بترحيلهم عن موطنهم حيث تكون جذورهم وماضـــيهم وهويتهم التي عُرفوا بها والتربة التي زُرعوا فيها، فتقول عن أحد الشـــخصـــيات: **"يقررون عليه الرحيل، يســحبون الأرض من تحت قدميه، ولم تكن الأرض بساطاً اشتراه من السوق، فاصل في ثمنه ثم مد يده إلى جيبه ودفع المطلوب فيه، وعاد يحمله إلى داره وبســـطه وتربع عليه في اغتباط، لم تكن بساطاً بل أرضاً تراباً زرع فيـــه عمره وعروق الزيتون، فما الذي يتبقى من العمر بعد الاقتلاع، وأيّ نفع في بيع أو شـــراء؟ ولماذا يخرجون مكنون بيوتهم تتعثر الأقدام فيه؟ ما الذي تمنحه حفنة دراهم لشـــجرة مخلوعة تشـــرئب جذورها في الفضـــاء لتمســك بتربة غائبة؟!"**(٤٢). وكذلك فيما ظهر من ألم وخذلان

على العروبة والإســـلام مُتمثلاً بأمل أحدهم أن تأتيهم النجدة فيُردُّ عليه بأنهم انتظروا هذه النجدة مئة عام، فيُهيج عليه لوعة الخذلان بتساؤله: (أين ذهب العرب والمسلمون؟!): " - **مقاومة قرار الترحيل خطأ، سلوك أخرق نتيجته سفك الدماء، يملكون ما لا نملك من قوة، نرفع فؤوسنا عليهم فيطلقون علينا من بنادقهم النار ويعملون القتل فينا فلا نجني سوى الهلاك!**

- قد تأتينا النجدة.

- انتظرناها مائة عام ...

والله يا أخي ما يعذبني أكثر من السؤال: أين ذهب العرب والمسلمون؟!

- لا أمل في النجدة.

- إذن فهو الرحيل.

لا غالب إلا الله !"[٤٣].

وهذا الحوار يُذكرنا بمدى شبه القضيتين اللتين تمثلان جُرحاً نازفاً في جسد الهوية العربية أو الإسلامية (الأندلس وفلسطين)، والألم النفسي الذي يضجُّ لدى الروائية. وتعمّد الروائية (رضوى عاشور) لموازنة أخرى صريحة، ما بين غرناطة والقدس، لكنها القدس المُحررة سابقاً وليست القدس المُحتلّة الحالية، فتقول: "**لم ينقش رسم غرناطة ولا البيازين، مالت السكين في يده تحزّ خطاً مقوساً ثم خطاً مقوساً غيره، كان ينقل الصورة التي أمامه ويقلدها، ضغط أكثر فتعمق الحزّ حفراً وتحددت القبتان، لماذا ينقش المكان البعيد، ما الذي تعنيه له القدس؟ نجمة مضيئة في السماء أم يجرب يده لتدريبها قبل أن تشرع في تصوير غرناطة؟ جاءهم الروم وغزوا أرضهم تماماً كما حدث لنا، ولكنهم طردوا الصليبيين، فلماذا استطاعوا ما لم نستطعه وكيف**

استطاعوه؟ هل كانوا يفوقوننا عزماً، أم أن الجواب في سؤال يختلف؟ ترى ما الذي حدث بالتفصيل هناك؟ لن يجد من يحكي له الحكاية كلها من البداية للختام، وهو لا يعرف سوى أن صلاح الدين طردهم من القدس مرة، ولكن للحكاية بقية فمن يحكيها له؟ لماذا رجحت الكفة في المشرق وهنا خفّت الموازين؟ هل بنا عيب ليس فيهم، أم أن مصيبتنا أننا مقطوعون بالبحر، لا مصر جارتنا، ولا حولنا عراق ولا شام؟ قال الحاج إنَّ في القدس نصارى من أهل البلاد، فلماذا يفرضون علينا التنصير هنا ولماذا يزدروننا"[٤٤].

وانطلاقاً من كيان وطني يكمن في عمق الانتماء الوطني المصري تُشرع الروائية مدافعة، فتنتفض للرسم الدوني لشعبها من قبل الآخر البريطاني، فمن يُمثل هذا الشعب قد منحَ أرضًا وتاريخاً، وهذا الآخر البريطاني المُستثمر قد منح كلبين فقط! فأي مساومة في هذا! ، فتقول: **"ورغم أن سعيد حاكم مصر منح شبرد أرض مقر مدرسة الألسن وكانت في السابق مقرا لكليبر قائد الحملة الفرنسية ومسرح اغتياله على يد سليمان الحلبي، أي منحه أرضاً وتاريخاً في واحد، إلا أنَّ برد متأثرا على ما يبدو بالرسوم الشائعة في زمانه لفندق شبرد اللاحق والتي يظهر المصريون فيها دائما في صورة ترجمان يقف بباب الفندق يفرك يديه في انتظار البقشيش، لم يستطع أن يرى في منحة الكلبين سوى بقشيش تكرَّم به جده على سعيد باشا!"[٤٥].**

ومن مظاهر استهداف الذات العربية الإسلامية وإقصاء وتهميش العبقرية والمُبدعة منها عند (د. خولة حمدي) ما حصل مع شخصية (عمر) الدكتور الذي يعمل في قسم الأبحاث في شركة الكيميائيات، والذي أُستُهدِفَ نتيجة تجربته الكيميائية التي كانت أسطورة علميّة أضحَتْ حقيقة على يديه، فكانتْ محطّ حسَد الآخر(الغربي)

وحقده وطمعه واتهامه في تفجير شـــركة الكيميائيات، وملاحقته بعد ذلك على مدى السنوات، ومُعاداته حتى بعد أن أثبتْ براءته بعد الظُلم الذي وقع عليه، فمنع مشروعه الذي عانى فيه ما عانى، وقد شكَّل محوراً أساسياً في صراع الخير والشر، بوَأده حياً، ففي حال فكر أن ينجو بنفسه من هذا الواقع فعليه التخلي والانسلاخ عن كيانه، عن هويته، عن وجوده العربي والإسلامي، بل حتى عن اسمه، ليحظى بفرصة النهوض مع علماء هذا المجتمع ومجاراتهم وإخراج ما بجعبته من إبداع هو أهلٌ له، كما في الحوار الذي وضعته الروائية على لسان شخصية (د. عمر) مع الآخر:

"–هل تقدّمت بطلب إنشاء المختبر؟

– نعم .. منذ شهرين تقريبا.

– هل جاءك ردّ؟

– ليس بعد.

– ولن يأتي في القريب! سيماطلون.. وحين تقصد الوزارة للاستفسار سيطلبون وثائق إضافيّة.. والمزيد من الوثائق في كلّ مرّة.. ستكون هناك وثيقة ناقصة، مهما تفانيت في توفير ما يطلبون!

عبس عمر في انزعاج، لقد تأخر عن المناقشة لأنّه أمضى الساعتين عن الماضيتين في شجار مع موظّفي وزارة الصناعة، بعد أن ادعّى الموظف ضياع ملفّه! كان عليه أن يعيد استخراج الوثائق من الصفر؛ لأنّ الملف اختفى من مكتب الموظف فجأة وبلا تبريرات، لقد حسب الأمر حادثة ما.. لم يعتقد البتّة أن يكون مستهدفاً! حتّى وهو يستمع إلى البروفيسور سامي، لم يشأ أن يصدّق! هل يمكن أن يصل بهم التآمر إلى تلك الدّرجة؟ بينما واصل سامي:

– هل تقدّمت بطلب الجنسيّة الفرنسيّة؟

لا، لم أفعل.

- إذن افعل في أقرب فرصة.. وحين تفعل، فكّر في تغيير اسمك بالمرّة.

رفع عمر حاجبيه في ضيق.

- لا تهتمّ بما يقوله الآخرون وبأحكامهم المسبقة.. فكرّ في نفسك وفي مختبرك، حين تنجح سينحنون أمامك احتراماً.. إنّه مجرّد اسم في هويّتك الفرنسية"[٤٦].

تكشف الروائية بذلك عن جملة من المُعاناة المُعاشة من الاغتراب والعنصرية والتهميش في بلاد الآخر.

❋ تأثير الجانب الديني على الهوية السياسية

تُناقش (د. خولة حمدي) قضية حساسة جداً، قضية أضحَتْ في وقتنا المُعاصر من أكثر القضايا الشائكة حيث تسعى الجهات الخارجية في زرع بذورها في نفوس الأجيال الحالية بل حتى زعزعة ثقة الأجيال السابقة في مُعتقداتهم وحقيقة تصورهم، وإيهامهم أنهم ما كانوا إلا على خطأ إيدلوجي مزروع في عقولهم وفي قلوبهم دون تفكير موضوعي، تسوق هذه القضية بأسلوب الحوار بين شخصيتي (عمر والمحامية رنيم)، فتلمس كل الأوتار الحساسّة والقضايا التي تشكِّل صراعات داخل المجتمع العربي، وهي:

المسألة الأولى هي ما شأن غير الفلسطيني بمقاومة الاحتلال الاسرائيلي، والمسألة الثانية وهي التي يتخذها كل دعاة التطبيع مع اسرائيل حُجة دامغة -حسب ما يعتقدون- لتفنيد حق الفلسطينيين في أرضهم بالادعاء ببيعهم لها، ولا تطرح هذه القضايا لمجرد السرد والمرور عليها بل تُقدم الإجابات الوافية لها، والمسألة الثالثة

التعريض المُبطَّن لكل ذاتٍ لا ترى في القضية الفلسطينية قضيتها. فتطرح الكاتبة هذه القضايا حين تستحضر قضية العرب الكُبرى فلسطين، والحق الفلسطيني في الوطن المفقود، واصطبغتْ هذه العواطف بالصبغة الدينية، فتقول على لسان شخصية المحامية رنيم:

" – لكنها ليست قضيتك، ما الذي يربطك بتلك الأرض البعيدة وناسها؟ كل شعب دافع على مرّ التاريخ عن أرضه وردّ المحتلين.. مصر فعلت ضدّ الإنجليز.. والمغرب ضد الفرنسيّين، وستفعل فلسطين أيضاً، فما علاقتك أنت؟ انظر.. الاحتلال مرحلة.. ثم يأتي الاستقلال، فلسطين تأخّر احتلالها عن باقي الدوّل العربية.. في الوقت الذي كنا فيه نتحرّر جاء دورهم ليذوقوا من كأس الاحتلال.. تلك سنّة الحياة!"(٤٧).

وتضع الروائية ردّها على هذه النظرية التي يتبناها الكثير، فتقول:

"– تفكير عجيب! كأنّ الاحتلال سنّة الحياة وقانونها الذي لا يتغيّر؟ كأن الاحتلال يجيء ويذهب تلقائيا، فلا نحتاج أن نواجهه ونردّه!

هزّت كتفيها وهي تقول في بساطة:

– أهل البلاد يفعلون!

– لكنّ هذه البلاد مختلفة. إنّها مقدّسة في وجدان كلّ عربي ومسلم! ...

– كلّنا نعرف أنّ الفلسطيّنيين باعوا أراضيهم لليهود، تنازلوا عنها عن طيب خاطر وقبضوا الثّمن.. فلماذا التّباكي الآن على الأرض المفقودة؟

تنهّد عمر، ثمّ قال:

– قد يكون ذلك حصل، في وقت ما من الماضي البعيد.. قبل النّكبة والنّكسة.. قبل وعد بلفور والمستوطنات، قبل التّهجير القسريّ والمخيمات! لكنّ البعض يظلّ يؤاخذ الكثرة المضطهَدة، بفعل القلّة المستفيدة! إن كان البعض قد باع، فإنّ الأغلبيّة طردت من مساكنها وأرسلت إلى مصير مجهول! ...

غير أنّ ما يحدث في فلسطين هو نوع ثالث، الاحتلال الأكثر وحشية وقذارة.. وله سوابق في التاريخ... أرأيت حين دخل الإنجليز أمريكا وأستراليا؟ أبيد السّكان الأصليون واستوطن الأرض المحتلون حتى لم يعد للثقافة الأولى وجود!

بعد قرون من "اكتشاف" الأراضي المجهولة أصبحت هويتها ممسوخة.. هذا ما يحصل حين يرتكز الاحتلال على الإبادة والتهجير، استئصال هوية وزرع أخرى واستبدال شعب أصلي بآخر وافد، تهجير المناهضين وتدجين القابلين بالبقاء، وهو ما حصل في الأندلس أيضاً.. مع الوقت، لا تعود هناك فلسطين كما لم تعد الأندلس.. تتحوّل المساجد إلى معابد، كما حُوّلت إلى كنائس في إسبانيا.. غير أن المساجد لا تتساوى –وإن كانت كلها بيوت الله التي يجب الذّود عنها– لكن حين يتعلق الأمر بأولى القبلتين وثالث الحرمين الشّريفين ومسرى نبيّنا فالأمر يتجاوز مجرّد الدّفاع عن أرض تخصّ مجموعة من البشر.. تتحوّل إلى قضية عظيمة تهمّ كل مسلم!"(٤٨).

ويبدو أن أشد ما عانته الروائية (د. خولة حمدي) بوصفها ذاتاً مُسلمة مُغتربة في وقتٍ ما، هو مسألة الإسلام الإرهابي، ومما يُشير لهذه القضية هو حادثة الانفجار في شركة الكيميائيات في مدينة ليون الفرنسية والذي راح ضحيتها المئات، وأُتهِمتْ شخصية (عمر الرشيدي) فيها بالإرهاب الإسلامي حيث أُتُهم بتسببّه لهذا الحادث، فهو في نظرهم من جماعة مُتطرفة كونه مسلماً ذا لحية، وهو الدليل الذي يؤكد إدانته،

وتقول على لسان هذه الشخصية: "**يعتقدون أن كلّ من يقول (الله أكبر) يهمّ بعملية انتحارية، وأنّ كل مسلم ملتزم هو بالضرورة مشروع إرهابيّ، ربما أفهمهم لأنّهم يجهلون كل شيء عن ديننا، ورؤوسهم مليئة بالأفكار المشوّهة**"(٤٩).

تُبرر الروائية ذلك بكون المسألة هي مسألة جَهلٍ؛ جَهل الفرنسيين بالدين الإسلامي وتعاليمه مما أدى لتشويه صورته واعتقادهم أنه يحثُّ على العنف والإرهاب والتطرف، ويُشكِّل مجرد الحديث عن الإسلام والتطرق لتعاليمه خطراً وتهديداً، فيُنعت المتحدث به بأنه "الإرهابيّ الأصولي المندسّ"(٥٠).

وقد نَوهتْ إلى مسألة الإرهاب أيضاً في الحوار الذي دار بين (ياسمين) الشخصية العربية المُسلمة و(روزلين) الشخصية الغربية غير المُسلمة، حيث أبانت عن عنصريتها الحاقدة للمسلمين، فوصفتْ (ياسمين) بالمرأة الإرهابية: "**صرخت... إرهابيّة ...اخرجي من هنا أيّتها الإرهابيّة...أخرجوا الإرهابيّة من هنا، النجدة!**"(٥١).

وتحمل نصوصها غضباً دفيناً أَعْرَبَتْ عَنْه صراحةً تجاه سياسة (بورقيبة)، فترى أنها تَكفلتْ بإنجاز مُخططات الاستعمار الفرنسي، ووأد منابع الفِكر الإسلامي من جذوره، فتقول: "**في وقت مضى، كان جامع الزّيتونة العريق في تونس العاصمة ينافس الأزهر الشريف من حيث الإشعاع الدّيني على المنطقة، كان رجال العلم من مشارق الأرض ومغاربها يقصدونه لإكمال دراستهم العليا في الدراسات الشرعيّة والأدبية، وقد لعب دوراً تاريخيّا في مقاومة الاستعمار الفرنسيّ، لذلك فقد رأى المستعمر وهو ينفض كفّيه من المسألة التونسيّة رافعاً حمايته المزعومة أن يترك مسؤوليّة هدم الكيان الزيتونيّ للتونسيّين أنفسهم، لم يفلح الاستعمار في اجتثاث**

الثقافة الإسلاميّة من جذورها، لكنّه فوّض المهمّة لحكومة الزعيم بورقيبة النّاشئة، خلال السّنوات الأول من تاريخ الاستقلال سيعمل بورقيبة على تقويض الرّجعيّة وتدعيم أسس الحداثة فيما يُسمى سياسة تجفيف المنابع، سيغلق الجامعة الزيتونيّة؛ لينتهي عهد التعليم الزيتونيّ مرّة واحدة، وتصبح واحدة من أعرق الجامعات في العالم الإسلاميّ طيّ النّسيان"[٥٢].

وأرجَعَتْ (د. خولة حمدي) بدايات الفكر الإلحادي لدى الشخصية الرئيسة في رواية (أرني أنظر إليك) للعامل السياسي بعد التداعيات الصغيرة الأخرى؛ للمفارقة والتبايّن الشديد ما بين عالمَين وواقعيّن شهدهما بنفسه، فتقول: "**هناك، في تلك الخلوة مع نفسك في منطقة الحدود بدأت الأسئلة الوجوديّة تتسلّل مرّة أخرى إلى روحك المنهكة، لقد اكتويت بلهيب المحنة لسنوات، غادرت موطنك شريداً، ودفعت ثمن إخلاصك لعقيدتك، واصطفافك في خندق الحقّ في مواجهة الباطل، وها أنت تقف على عتبة اللّاشيء، ترمق في حسرة مشاهد الفقر المدقع التي تملأ ناظريك، هؤلاء الأحياء الأموات على الحدود، على هامش الوطن والبشريّة، نسيتهم الحياة أو كادت، فما جادت عليهم من معانيها بأكثر من فتات.. بينما يعيش الظلمة المتجبّرون ذوو النّفوذ من خونة الدّين والوطن في ترف متبطرين، تتأمّل الأكواخ المتداعية وأسمال الأطفال المهلهلة، أين هي من القصور والجنّات التي يرفل فيها أصحاب السلطان؟ لا ذنب لهم إلّا أنّهم ولدوا على الحدود، فكان قدرهم الشّقاء!**

تتصاعد المرارة إلى حلقك، وتتساءل في حرقة: أين الله من هؤلاء؟ وأين الله من أولئك؟ أوليس بيده أن ينصف هؤلاء ويفتك بأولئك؟ فلماذا إذن؟

تضيق بك الدنيا بما رحبت، ويشتدّ بك اليأس في ساعات الهجير تحت لهيب الشّمس الحارقة، يهيأ إليك من لفحاتها أنّ أبواب جهنّم قد فتحت على مصاريعها، فتفتك بك الهلاوس، يغلبك سوء الظنّ واليأس من رحمة الله، وتنتابك الرّيبة، هل كان جهادك مجرّد وهم؟ لماذا لم ينصركم الله وأنتم أولياؤه؟ لماذا تهجّرون من دياركم ووطنكم طوعاً وقسراً؟ لماذا يترككم الله لآلة البطش تسحقكم ولا يحرّك ساكنا؟"(٥٣). فكأن الكاتبة تلمح لفكرة أن الظلم والقهر اليومي اللذين يُعانيهما بنفسه لسنواتٍ في المُعتقلات ويراهما في حياة الآخرين، قد يحرفه عن المشاعر الإنسانية الطبيعية، والرؤية المُتوازنة.

وعلى هذا فقد "غدت الكتابة الروائية لا تكتفي بمجرد سرد حكايات شخصياتها، وتتبع ما يأتون به من أحداث وحسب، وإنما تعمل على تقديم حكاية وعي الكاتب نفسه في محاولته لاكتشاف ذاته ومساءلة أدوات وطرائق إبداعه، بما يجعل الكتابة نوعا من اللعب المبدع الواعي المحتفي بالكتابة ذاتها على حساب المكتوب عنه"(٥٤).

❋ القضية الفلسطينية (الهوية المفقودة)

تَبوأتْ فلسطين مكانة مرموقة في نفوس الأدباء، وتربعتْ حكاية النكبة التي حلّتْ بتلك البقاع الطاهرة والمرابع المقدسة في نفوس مُعظمهم، فهذا الانسان أُنتزع من وطنه، وفَقدَ حقوق الانتماء، وسُلِب منه حق انتسابه إلى الأرض التي وُلِد وترعرع فيها، فالوطن يعني له الكيان والانتماء، حيث الوجود والهوية، فلكل إنسان حق العيش في وطن يحميه ويوفر له الحياة الكريمة، ويعطيه حق الانتماء، حيث يكون لكل اختيار مُقابل، فالوطن يقابله الموت الحتمي، وفي النظير الآخر المنفى يُقابله فقدان الهوية واغتراب الذات الفلسطينية في المخيمات العربية ومعاناتها، فتكون (الأنا

الفلسطينية) أمام خيارين أحلاهما مُرّ، فهي معركة الوجود الإنساني ووجود شعب ووطن أو انعدامه .

فنجد بذلك أن الروائيتين تحدثتا عن رمز مُهم لدى الذات الفلسطينية، ألا وهو مفاتيح فلسطين، والذي يُمثل مُفتاح العودة ورمز الثبات والإصرار، كأن هذه المفاتيح أسطورة تناقلتها الاجيال، فهل بقيت هذه الديار على حالها حتى يتمكنوا من فتحها يوماً ما!؟

إنها رمز لتُذكر بالقضية التي أفنتْ هذه الأجيال حياتها من أجلها، فهذا المفتاح رمز للهوية، رمزٌ للوطن المفقود، وهو الإرث الوحيد الذي في حوزتها ويمثل كينونتها ووجودها، من ذلك قول (د. رضوى عاشور) في حوار شخصيات الطنطورية:

"دخلتْ غرفة أمي وعادت، مدت لي يدها بمفتاح حديدي كبير، قالت:

– مفتاح داركم يا رُقَيَّة.

–غريب، لم أره منذ غادرنا الدار، أين كانت تخبئه؟

– كانت تعلّقه في رقبتها، لا تخلعه حتى حين تنام أو تتحمم.

أقول لها يا زينب يا أختي الحبل سيهترئ، حين تتحممين اخلعيه ثم علِّقيه ثانية، لا تقبل، وذاب الحبل كما توقعت، أتت بحبل جديد علَّقَتْهُ به وبقيت على عادتها تنام به وتتحمم به...

أمسكت بالحبل الدقيق بكلتا يدي ورفعته ثم أدخلت رأسي فيه، صار المفتاح معلقاً في رقبتي، أمسكت به ورحت أتأمله من جديد، ثم أدخلته تحت الثوب ... مثل أمي سيبقى المفتاح معلّقاً في عنقي، في الصحو والمنام، لا أخلعه حتى في الحمام، وكلما تهرأ الحبل استبدلت به حبلاً جديداً.

بعد سنوات عندما انتقلنا إلى بيروت وشاركت في محو أمية النساء في شاتيلا وتعيّن عليّ أن أزور نساء المُخَيَّم لإقناعهن بأهمية الأمر، اكتشفت أن ما ورثته عن أمي كان شائعاً، استغربت، كيف تفعل النساء الشيء نفسه دون سابق اتفاق؟ أذكر زيارتي الأولى... مدّت أم إبراهيم يدها في صدرها وأرتني المفتاح المعلّق في حبل حول رقبتها. قالت: مفتاح دارنا.

لاحقاً سوف أعرف أن أغلب نساء المُخَيَّم يحملن مفاتيح دورهن تماماً كما كانت تفعل أمي، البعض كان يريه لي وهو يحكي عن القرية الذي جاء منها، وأحياناً كنت ألمح طرف الحبل الذي يحيط بالرقبة وإن لم أر المفتاح، وأحياناً لا ألمحه ولا تشير إليه السيدة ولكنني أعرف أنه هناك تحت الثوب"(٥٥).

وتُشير (د. خولة حمدي) إلى هذه المفاتيح أيضاً في رواياتها، منه قولها: **"في حركة غير متوقّعة سحبت آية سلسلة حول عنقها، كانت تخفيها في طيّات ثيابها، في طرف السلسلة يتدلّى شيء يختلف عن الحلية الذهبيّة المعتادة.**

رفعت كّفها وهي تحتضن بين أناملها مفتاحاً معدنيّاً صدئاً وقالت بلهجة صارمة:

– هل تدري ما هذا؟ أومأ عمر علامة الإيجاب، وهو يحدّق في المفتاح الأثريّ مأخوذاً: مفتاح العودة، لم تكن مجرّد أسطورة، حكاية المفاتيح تلك! لقد كانت حقيقة.. مفاتيح الدّور التي سُلبت حين استوطن الاحتلال الصهيوني قرى فلسطين ومدنها يحتفظون بها ويتوارثونها جيلاً بعد جيل، عسى يكون لهم في العودة نصيب.

– هذا مفتاح بيت جدّي رحمه الله.. لعلّ أحدنا لا يعرف أين يقع البيت بالتحديد.. لكنّنا نحتفظ بالمفتاح والصور القديمة.. ونتعهّد الحكاية بالرعاية، فنسقي

الذكريات بالدمــع والحنين، كي لا ننسى مــن نــكــون، وما هي قضيّتنا "[٥٦]. فهذه المفاتيح مُحملة بدلالاتٍ رمزية لإرثٍ هوياتي تتناقله الأجيال، آملة اســترداد الحق في هذه الهوية.

لقد شكّلتْ فلسطين وقضيتها مُنطلقاً لكثيرٍ من الأدباء، وشغلتْ نكباتها القلوب، فتعدُّ فلسطين قضية المسلمين جميعاً وجرحها جرحهم، عاشتْ مأساتها في قلوبهم وتربعتْ أقصاها على عروش أدبهم، وكلتا الروائيتين فد حضرت فلسطين في سردها أشد الحضــــور، بما ترمز إليه عبر التاريخ الإســــلامي العريق، فلم تكن مجرد بقعة من الأرض بل كانت وما زالت إرثاً مُقدساً، وحين استحالتْ رؤية هذا الوطن المفقود أصبح كالكنز الذي لا يملك فقير حتى الحُلم به، لكنه ومع ذلك يبقى مُحافظاً على هذا الارتباط بأرضه، وهذه الأرض التي قد تعجز– رغماً عنها– في كثير من الأحيان عن حماية أبنائها، ومنه قول (د. رضوى عاشور): **"كان حسن قرر أن يسافر مع زوجته، قال: سأزور فلسطين، جُنَّ صادق! قال: ستزور إسرائيل، نعم هي فلسطين لكنها رســـميّاً إســـرائيل، وحين يختمون خاتم الدولة في مطارهم على جوازك الكندي لن تتمكن من زيارة معظم البلاد العربية، لستَ كنديّاً وإن كنت تحمل جواز سفر كندي، اسمك حسن ومن مواليد صيدا، وهات اقْنع ضابط الجوازات في سوريا أو لبنان أنك أردت أن تزور بلدك، يا خويّ ربنا عرفوه بالعقل وآدي الله وآدي حكمته، زيارتك لفلسطين ترفٌ لا نملكه"**[٥٧].

شكّلت هذه القضية المحور الأساس لإحدى روايات (د. خولة حمدي)، فلفلسطين بؤرة الأحداث في رواية (ياسمين العودة) وجعل منها (عمر) الشخصية الرئيسة في

الرواية العقيدة الدينية للسمو بهذا الدين، وذكرتْ عنه أحداث كثيرة عن علاقته بهذه القضية، ومنه المشهد المؤثر الذي حدث له مع إحدى النساء الفلسطينيات:

" - هل أنت ذاهب إلى فلسطين يا ولدي؟

أوما مبتسماً، فهتفت على الفور في لهفة:

هلّا حملت إليّ قبضة من تراب قريتنا في رام الله، في زيارتك المقبلة؟

كانت أم محمد قد غادرت بلدة صوريف إبّان النكبة الأولى، وعمرها لا يزيد على السنوات العشر، وصفت له البيت بدقّة كما تحفظ تضاريس المكان في ذاكرتها، ربّما تتلوّن الذاكرة وتخونها، فتكمل الصورة الذهنيّة بمعالم رأتها على التلفاز، لقرى أخرى مهجّرة.. فتتماهى الصور في مخيّلتها حتّى تحسيها واحدة. تقول في ثقة:

- البيت في أعلى التلّة، إلى جوار بيت أبو صالح.. اسأل أيّا كان عنه الجميع يعرفه، أمام البيت زيتونة كبيرة، لا تنسَ، في المرّة القادمة.. أحضر معك التّراب!

ابتسم عمر في مرارة واطرق في حرج، ثمّ تطلّع إلى الصورة التي بين يدي السيّدة السبعينيّة. صورة قديمة مهترئة هي كلّ ما تبقّى من البيت الذي تعتقد أنّه ما زال يقف هناك شامخاً فوق التلّة يترقّب عودتها، تتحدّث بإسهاب عن الوطن، وعن رائحة ترابه المميّزة، وإذ إنّ أملها في العودة بعد تلك العقود الطويلة قد غدا مستحيلاً، تبتكر أم محمد طريقة مدهشة للعودة.. فتوصي أبناءها بنثر التراب الذي سيحضره عمر من القرية على قبرها!"[٥٨].

وبهذا تكون المرأة الكاتبة دارتْ في محيط الوطن وهمومه السياسية، وسلطتْ الضوء على جراحة المعنوية والمادية، ومآسيه السياسية، ومُصورة متاهة أجيال، فموضوعات

الرواية العربيـــة – كمـــا هـــو شأن الجوانب الفنية والشكلية الأخـــرى– تشهد مُتغيرات وجـدت لثلاثة أسباب رئيسة: الأول هو أنَّ الأدب عموماً في طبيعته وكما لم يؤثر في البيئة فحسب، وإنما كان تأثيره على ما شهده من تغيرات بيئته، والثاني هو أنَّ الروايـة فن المدينة، ولما كانت المدينـة بمجتمعها دائمـة التغير كان من الطبيعي أن تستجيب الروايـة أكـثـر مـن أي فـن آخـر لهـذه المُتغيرات، والثالـث هو أن السنوات التي شهدتْ الاهتمام الواسـع بالرواية العربيـــــة قـــــد شـهدتْ مُتغيرات في الإنسـان والبنى والنظم السياسية وفي القيـم والعلاقات الاجتماعية، عـلـى مستويات واسعة في العالم، ولاسيما في الوطـن العـربي، فكانـت الروايـة خـير شـاهـد عـلى مـا جـرى للإنسـانية مـن أذى وتعذيب، وفيما لحـق بالأبريـاء مـن دمـار جـراء نشـاط المنظمات الإرهابيـة، ومـا نجـم عن ذلك النشاط من قتل وتهجير وإساءة للإنسان وقيمه، وما لحق الأديان السماوية، لا سيما الإسلام من تشـويـه وكذب واعتداء على الأبرياء والمبادئ، وقـد بـدا كل ذلك في الرواية العربيـة قتلاً واغتيالاً وتهجيراً وتدمير منجزات، والإنسان أولاً وأخيراً ولاسيـما المرأة الهدف المُستضعف الذي حطمه العنف وشرده الإرهاب.

وكانت الروايـات الـتـي عالجتْ هذا الموضـوع المهم خير دليـل على مـا نقول، فنشاط الحركة النسوية كان لـه أصداء مُتنوعة في الـوطـن العـربي، وكان معظـم نصوصهـن سجلاً مُدوناً بفنية وجماليات عذاب المرأة، فالأرض والوطن وهموم الإنسان واحدة من القضايـا المُهمـة الـتـي شـغلتْ الروائية العربية، فتبـوح بـكـل هـذا العـذاب ومعـه عـذاب الحروب والدمـار في رواية حداثيـة مـن حيث انفراط الحبكـة وتكسير الزمـن، واستلهام التاريخ وحوار الحضارات والموروث الشعبي ووقائع السياسة والحروب والمنافي(٥٩).

الخاتمة

تعدُّ كل من الروائيتينِ منارة فكرية دافعتْ عن هوية الأمة من خلال أعمالها السردية، وظهرتْ في رواياتها مُتمردة بقلم صادق مهموم بالإنسانية، وصورة الوطن المفقود وقضايا التاريخ وكذلك قضايا المرأة، وتُوصف بأنها أيقونة الحرية والمقاومة بالكتابة. وبهذا تكون المرأة الكاتبة دارتْ في محيط الوطن وهمومه السياسية، وسلطتْ الضوء على جراحة المعنوية والمادية، ومآسيه السياسية، ومُصورة متاهة أجيال، ويُمكن ضمّ مُعظم أعمال رضوى عاشور تحت مصطلح أدب السجون والقمع السياسي، وسجناء الرأي وتأثيره على نفسية الشخصيات الروائية وتكوينها الشخصي، وكانت الرؤية السياسية الصادرة عنها تجاه السلطة السياسية المُعاصرة ما تَلبث أن تَتَبَدل بتغيّر الأحداث، فصارتْ كموج البحر بين مدٍ وجزر، وأضحَتْ في تخبط وضبابية في رؤيتها للآخر السياسي ما بين الصورة السلبية والإيجابية، وهذه الهوية المُتغيّرة وغير الواضحة تظهر أيضاً حين تُظهر هذا الآخر السياسي بصورة مُحايدة، وفي أحيانٍ أُخرى تستخدم أسلوباً غير مُباشر لاستنكار بعض ما تقوم به هذه الشخصية؛ وعلى هذا تكون نظرتها جزئية ومُتبايّنة وليست شمولية، فتذكر ما لهذه الشخصية وما عليها، بينما كانت الروائية خولة حمدي ذات هوية سياسية رافضة للسلطة وما تقوم به من أعمال.

وبهذا فقد واكبتْ الرواية النسوية الظروف السياسية وتتبعتْ أوضاع الحُكم في جريانها وانعطافاتها وتقلباتها، وتلجأ في بعض الأحيان للرمز في نقدها للسلطة السياسية، ولم يكن انتماء الروائيتين إلى قومية ضيقّة أو هوية مُعينة، بل كانت صاحبة انتماء عميق للأمة العربية، فحملتْ الروائية الرسالة تجاه أُمتّها، وحَملتْ عنها

هَمَّها واسمها، فتُسجل من خلال الأحداث الروائية انكسار الذات في وطنٍ يضيّق الخناق على المواطن شيئاً فشيئاً حتى يُجرده من إنسانيته وهويته. من خلال طمس هذه الهوية والعذاب وعدم السماح بحرية العيش في هذه الأوطان.

وقد شكلَّتْ فلسطين وقضيتها مُنطلقاً سياسياً مُهماً عند الروائيتين، بما ترمز إليه عبر التاريخ الإسلامي العريق، فلم تكن مجرد بقعة من الأرض بل كانت وما زالت إرثاً مُقدساً.

هوامش البحث ومصادره:

---

(١) ينظر: لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين ابن منظور الأفريقي المصري (ت ٧١١هـ)، دار صادر، بيروت- لبنان، ط٣، ١٤١٤ هـ: ٦/ ٢٠٨.

(٢) ينظر: الرائد- معجم لغوي، جبران مسعود، دار العلم للملايين، بيروت-لبنان، ط ٧، ١٩٩٢م: ٤٥٧.

(٣) ينظر: معجم المصطلحات السياسية، وَضَّاح زيتون، دار أسامة للنشر والتوزيع، نبلاء ناشرون وموزعون، عمان-الأردن، ط ١، ٢٠١٤م: ٢١٤ - ٢١٥.

(٤) الطَّنْطوريَّة، رضوى عاشور، دار الشروق، القاهرة- مصر، ط١، ٢٠١٠م: ١٩٣.

(٥) ومنه على سبيل المثال ما ذكرته في رواية: فَرَج، رضوى عاشور، دار الشروق، القاهرة- مصر، ط١، ٢٠٠٨م: ٢٩- ٣٧.

(٦) فرج: ١٧ - ١٨.

(٧) فرج: ٣٠-٣٣.

(٨) خديجة وسوسن، رضوى عاشور، دار الهلال، القاهرة- مصر، (د. ط)، ١٩٨٩م: ٢٨، ٢٩.

(٩) حسب تاريخ نشر الروايات فإن رواية (خديجة وسوسنة) والصادرة سنة ١٩٨٧م سبقتْ الروايتين الأخريينْ، فكانت لها رؤيةٌ سلبيةٌ تجاه هذه الشخصية السياسية، ثم تَلتّها رواية (قطعة من أوروبا) والتي صدرت في عام ٢٠٠٣م، حيث كانت الرؤية الإيجابية، وعادت بعدها للرؤية السلبية في رواية (فرج) الصادرة سنة ٢٠٠٨م.

(١٠) قطعة من أوروبّا، رضوى عاشور، دار الشروق، القاهرة- مصر، ط١، ٢٠٠٣م: ٨٧.

(١١) قطعة من أوروبا: ٩٠ - ٩١.

(١٢) فرج:٢٣ .

(١٣) فرج:٢٢ .

(١٤) سراج، رضوى عاشور، موقع كتب عربية: ٤١ - ٤٢.

(١٥) أين المفر، خولة حمدي، دار كيان، مصر، ط١، ٢٠١٧م: ٩٨.

(١٦) أين المفر: ١٧٤.

(١٧) أرّني أنظُر إلَيك، خولة حمدي، دار كيان للنشر والتوزيع، مصر، ط١، ٢٠٢٠م.

(١٨) ياسَمين العَودَة، خولة حمدي، دار كيان للنشر والتوزيع، مصر، ط١، ٢٠٢١م: ٤٧٩.

(١٩) ياسمين العودة: ٤٨٢ - ٤٨٣.

(٢٠) ينظر على سبيل المثال: قطعة من أوروبا: ٧٣- ٨٠، وغيرها.

(٢١) قطعة من أوروبا: ١٢٧.

(٢٢) قطعة من أوروبا: ١٢٣-١٢٤.

(٢٣) قطعة من أوروبا: ١٣٣ - ١٢٤.

(٢٤) أرني أنظر إليك: ١٢٩.

(٢٥) أرني أنظر إليك: ١٣٢ - ١٣٣.

(٢٦) ينظر: في قلبي أنثى عبرية: ٤٣٥-٤٣٨، ٤٣١-٤٣٣، ٤٤٦- ٤٤٩.

(٢٧) في قلبي أنثى عبرية: ٤٤٦ - ٤٤٨.

(٢٨) ينظر: في قلبي أنثى عبرية: ٤٣- ٤٨.

(٢٩) في قلبي أنثى عبرية: ٤٣ - ٤٤.

(٣٠) الطنطورية: ٤٤.

(٣١) الطنطورية: ٧٧.

(٣٢) الطنطورية: ٢١٦ – ٢١٧ .

(٣٣) قطعة من أوروبا: ١٦٣.

(٣٤) قطعة من أوروبا: ١٦٤.

(٣٥) ياسمين العودة: ١٤٣.

(٣٦) أرني أنظر إليك: ٤٠، ٤٢.

(٣٧) أين المفر: ٢٠١.

(٣٨) غربة الياسمين: ٢٣٧.

(٣٩) ثلاثية غرناطة، رضوى عاشور، دار الشروق، القاهرة- مصر، ط ٥، ٢٠٠٥م: ١٢.

(٤٠) ثلاثية غرناطة: ٣٢٧.

(٤١) ثلاثية غرناطة: ٤٩١.

(٤٢) ثلاثية غرناطة: ٤٩٠.

(٤٣) ثلاثية غرناطة: ٤٩٥، ٤٩٧.

(٤٤) ثلاثية غرناطة: ٤٧٣، ٤٧٤.

(٤٥) قطعة من أوروبا: ١١٣.

(٤٦) ياسمين العودة: ١٥٦ – ١٥٧.

(٤٧) ياسمين العودة: ٤١٨.

(٤٨) ياسمين العودة: ٤١٨ – ٤٢٠.

(٤٩) غُربَة اليَاسَمين، خولة حمدي، دار كيان للنشر والتوزيع، مصر، ط١، ٢٠١٤م: ٩٣.

(٥٠) غربة الياسمين: ١٤٣.

(٥١) غربة الياسمين: ١٤٣.

(٥٢) أرني أنظر إليك: ٣٩.

(٥٣) أرني أنظر إليك: ٨٧ – ٨٨.

(٥٤) الرواية الجديدة–قراءة في المشهد العربي المعاصر، محمود الضبع، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة–مصر، ط١، ٢٠٢٠م: ١٠٠.

(٥٥) الطنطورية: ٩١ – ٩٣.

(٥٦) ياسمين العودة: ١٤٢ – ١٤٣.

(٥٧) الطنطورية: ٤٣٢.

(٥٨) ياسمين العودة: ٢٩٦.

(٥٩) ينظر: الرواية النسوية العربية–المرأة في عالم متغير، مجموعة من المؤلفين، تحرير وتقديم: د. نجم عبد الله كاظم، دار كتارا، قطر، ط١، ٢٠١٨م: ٤٧٤، ٤٧٥، ٤٨١، نقلاً عن: الحرب والعنف والإرهاب في الرواية العربية النسوية، بشرى البستاني، وينظر أيضاً: التطرف الديني في الرواية العربية المعاصرة، نجم عبد الله كاظم، مجلة (ذوات)، العدد ٢٨، ٢٠١٧م: ٢٣.

المصادر والمراجع:

- أرّني أنظُر إلَيك، خولة حمدي، دار كيان للنشر والتوزيع، مصر، ط١، ٢٠٢٠م.
- أين المفر، خولة حمدي، دار كيان، مصر، ط١، ٢٠١٧م.
- التطرف الديني في الرواية العربية المعاصرة، نجم عبد الله كاظم، مجلة (ذوات)، العدد ٢٨، ٢٠١٧م.
- ثلاثية غرناطة، رضوى عاشور، دار الشروق، القاهرة– مصر، ط ٥، ٢٠٠٥م.
- الرائد– معجم لغوي، جبران مسعود، دار العلم للملايين، بيروت–لبنان، ط ٧، ١٩٩٢م.
- الرواية الجديدة–قراءة في المشهد العربي المعاصر، محمود الضبع، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة–مصر، ط١، ٢٠٢٠م.
- الرواية النسوية العربية–المرأة في عالم متغير، مجموعة من المؤلفين، تحرير وتقديم: د. نجم عبد الله كاظم، دار كتارا، قطر، ط١، ٢٠١٨م.
- سراج، رضوى عاشور، موقع كتب عربية.
- الطَّنْطوريَّة، رضوى عاشور، دار الشروق، القاهرة– مصر، ط١، ٢٠١٠م.
- غُربَة اليَاسَمين، خولة حمدي، دار كيان للنشر والتوزيع، مصر، ط١، ٢٠١٤م.
- فَرَج، رضوى عاشور، دار الشروق، القاهرة– مصر، ط١، ٢٠٠٨م.
- قطعة من أوروبّا، رضوى عاشور، دار الشروق، القاهرة– مصر، ط١، ٢٠٠٣م.
- لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين ابن منظور الأفريقي المصري (ت ٧١١هـ)، دار صادر، بيروت– لبنان، ط٣، ١٤١٤ هـ.
- معجم المصطلحات السياسية، وَضَّاح زيتون، دار أسامة للنشر والتوزيع، نبلاء ناشرون وموزعون، عمان–الأردن، ط ١، ٢٠١٤م.
- ياسَمين العَودَة، خولة حمدي، دار كيان للنشر والتوزيع، مصر، ط١، ٢٠٢١م.